الرواية التاريخية، البدايات والإرهاصات

أ. شريط جميلة
جامعة وهران1
أحمد بن بلة

اختلفت الآراء وتضاربت المواقف بشأن تقديم تعريف جامع مانع للرواية بصفة عامة والرواية التاريخية على الخصوص وذلك راجع إلى تعدد وجهات نظر الكتاب والنقاد إليها "فجورج لوكاش" باعتباره الأب الروحي للرواية التاريخية يعرفها George luckach على أنها «إحدى أدوات تصوير التاريخ الأكثر تفصيلا وصدقا في استجلاء ما حدث في التاريخ»[1].

فالرواية التاريخية بمثابة المرآة العاكسة لأحداث التاريخ إذ تغوص في الماضي من أجل استجلاء الأحداث وتصويرها، كما يصفها بأنها «رواية تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات»[2] إذن فالرواية التاريخية تجعل من الماضي مملكتها الفضلى لأجل بناء الأحداث التي تقع في الحاضر، وقد نعتها "لوكاتش" بهذا الوصف "المخطوبات" مقارنا إياها بأعمال و"لترسكوت".

وعرفها آخرون على أنها «تعتمد الزمان الموثق والمكان المحدد مع الحادثة المدونة والمؤقت وتهتم بتسجيل الأحداث الفعلية من الماضي»[3] ولعل الروايةالتاريخية تجعل من الماضي سردا لبناء أحداثها وشخصياتها، وتحديد مكانها، هذه الرواية التي تعتمد على تصوير أحداث التاريخ، والتي وقعت في مجتمع من المجتمعات، ويعبر عن حقيقة زمنية معينة، ولكن بأسلوب شيق حتى لا يتقيد بالمعطيات الحقيقية للتاريخ.

إذن فتوظيف التاريخ بدأ يعرف طريقه إلى الفن الروائي منذ القرن العشرين، حيث كتب "طه حسين" و"توفيق الحكيم" "القصر المسحور" وهما بذلك متأثران بحكاية "ألف ليلة وليلة".

والرواية التاريخية هي «تفاعل بين الروح التاريخية والأنواع الأدبية تفاعلا يعكس ما خفي سابقا وما غمض لاحقا»[4] فجورج لوكاتش يرى أن عودة الروائي إلى الماضي، هي عودة فيها الكثير من التأمل والتصنيف والشروط الأساسية التي على الروائي أن يتحلى بها.

وهذا ما ذهب إليه بعض النقاد والباحثين الغربيين الذين اهتموا بدراسة الرواية التاريخية من خلال محاولة الجمع بين التاريخ والخيال، فقدموا بذلك تعريفات مختلفة ومتعددة نذكر منها.

تعريف " ألفريد شيبارد Alfred sheppard " الذي عرف الرواية التاريخية على أنها «تتناول القصة التاريخية الماضية بصورة خيالية، يتمتع الروائي بقدرات واسعة يستطيع معها تجاوز قدرات التاريخ، لكن على شرط أن يستقر هناك لفترة طويلة إلا إذا كان الخيال يمثل جزءً من البناء الذي يستقر فيه التاريخ»[5]، فكاتب الرواية التاريخية يجب أن يكون يتمتع بقدرات فنية هائلة حتى يستطيع أن يوظف خياله بطريقة لا تتنكر للتاريخ ولا تلغي العملية الإبداعية والمتمثلة في الخيال.

وفي المقابل نجد بعض الباحثين والدارسين قد ركزوا جهودهم على الجانب الفني للرواية التاريخية متغافلين في الوقت ذاته الجانب المادي والمتمثل في التاريخ والذي يشكل العمود الفقري لها؛ لذلك نجد "بيكون Buchan" يرى أن الرواية التاريخية «تحاول إعادة تركيب الحياة في فترة من فترات التاريخ»[6] فهذه الرواية تصور التاريخفي فترة معينة، وذلك بالعودة إلى الماضي، محاولة إعادة بناء أحداثه، وصياغتها بطريقة تختلف عن طريقة المؤرخ، والمتمثلة في تسجيل الوقائع وتثبيتها بطريقة موضوعية، فهو يعمل أدواته الفنية لإعادة إظهار هذه الفترة إظهارا فنيا موحيا بعيدا عن سطوة الوثائقية»[7].

أما "بيكرBaker" فلم يخرج عن نهج "بيكون Buchan" وراح يؤكد أن الرواية التاريخية تصور أحداثا ووقائع حدثت في الماضي بطريقة فنية جمالية، فهذه الرواية هي التي «تتناول عادات بعض الناس مكتوبة بلغة حديثة»[8] عن طريق العودة إلى هذه العادات والتقاليد وتصويرها بلغة حديثة بعيدة عن تلك اللغات التي كان القدماء يتحدثون بها.

إن جمالية الرواية التاريخية تكمن في كونها تمزج بين الحقيقة والخيال، مما يدفعها إلى إحياء التاريخ، تجذب القارئ إليها وتجعله يعيش أحداث التاريخ الماضي في اللحظة الآنية، لأنَّ الإنسان يتأرجح بين الماضي والحاضر.

أما "ستودارد Stoddard فيرى أن الرواية التاريخية «تمثل سجلا لحياة أشخاص أو عواطفهم تحت بعض الظروف التاريخية»[9] فهو يركز على فنية العمل أكثر من تاريخيته، فيرى الرواية التاريخية بمثابة السجل الذي يسجل حياة الناس وعواطفهم ومشاعرهم في فترة زمنية معينة، فالكاتب عليه أن يزيف التاريخ أو يحرفه أثناء كتابة الرواية التاريخية، بينما يرى "جوناثان فيلد J. Field " أن الرواية التاريخية تكون «تاريخية عندما تقدم تواريخا وأشخاصا وأحداثا يمكن التعرف إليهم»[10] "ففيلد" يعرض علينا المواد التي تشكل الرواية التاريخية والمتمثلة في التواريخ والشخصيات والأحداث التي يمكن أن نجد لها مثيلا في الواقع.

ومهما تعددت الآراء واختلفت وجهات النظر فإنَّ جل الدارسين والباحثين يركزون على التاريخ كمادة أساسية لبناء ما يسمى بالرواية التاريخية، ولكن هذا التاريخ لا يكون تاريخا خالصا جافا بل يجب أن يكون المبدع ذكيا في طريقة المزج بين الحقيقة والخيال من أجل ميلاد

رواية تاريخية تمتع المتلقي بقراءتها، وتضع التاريخ في طبق المنفعة واللَّذة، وهذا ما ذهب إليه "ويستر" في أنها «تمثل أي شكل سردي يقدم وصفا دقيقا لحياة بعض الأجيال»[11].

إذن يتضح من التعريف الذي قدمه "ويستر" للرواية التاريخية على أنها أي شكل سردي يقدم وصفا دقيقا لحياة بعض الأفراد لأنَّ التاريخ نجده مبثوثا في ثنايا المصادر العلمية المختلفة والتاريخ هو حياة الشعوب، فلا يمكن للإنسان أن يتجرد من تاريخه، كما أنَّ النصوص الأدبية مهما كان نوعها، شعرية كانت أم سردية فإنَّها توظف التاريخ سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وكاتب الرواية التاريخية عليه أن يتوقف عند بعض المحطات التاريخية والفترات الزمنية لأنَّ كل مرحلة تتميز بكل خصوصياتها عن المرحلة الأخرى، لذلك لابد من الاهتمام ببعض المراحل التاريخية والتي أصبحت في طي النسيان، وهذا لا ينفي بأنَّ هناك شيء من الفنية والأدبية يضفيه الروائي على هذا النوع من الكتابة لأنَّ «الرواية التاريخية من عمل الروائي تبدو فيها الذاتية والخيال»[12] ولذلك فالرواية التاريخية قريبة من التخيل والإبداع السردي.

كما اهتم الروائيون العرب بالرواية التاريخية، وأعطوها كثيرا من الرعاية والاهتمام، نظرا لتاريخهم الحافل بالمآثر والأمجاد والبطولات، والمليء من جهة أخرى بالمآسي والمحن والإنكسارات، وهي عوامل شجعت المبدعين العرب على الكتابة في هذا النوع الأدبي إذ حاول بعضهم أن يقدم لها مفهوما أو تعريفا، ولكن جل اهتماماهم كان منصبا على الجانب الفني مهملين في الوقت ذاته الجانب التاريخي، فالرواية التاريخية هي «إعادة بناء خيالية للماضي تتناول أساسا حياة جمع من الناس وعاداتهم وتقاليدهم فهي العودة إلى الماضي وإعادة بنائه بطريقة فنية »[13] وجمالية وهذا ما ذهب إليه "محمد نجيب لفتة" إذ يرى أن الرواية التاريخية تتجه إلى الماضي محاولة إعادة بنائه وتصويره بطريقة فنية لتعبر عن حياة جماعة من الناس وعاداتهم وتقاليدهم وما يمكن أن يعاب على هذا التعريف أنه يركز على الجانب الخيالي للرواية التاريخية متغافلا عن الجانب التاريخ المادي، وإذ كان الأمر كذلك فما الفرق بين الرواية التاريخية والرواية غير التاريخية والتي تعود إلى الماضي؟

ويلتقي«"سيعد يقطين" مع "محمد نجيب لفتة" في أن نقل التاريخ حرفيا يسيء إلى الإبداع السردي، ولذلك فعلى الكاتب الروائي أن يصبغ التاريخ بصبغة خيالية، وهذا ما أكده في قوله أن أي عمل سردي يرمي إلى شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة»[14]فالخيال هو القاسم المشترك بين سعيد يقطين ومحمد نجيب لفتة.

كما تحدث "عامر مخلوف" عن الرواية التاريخية والتي وجدت «في التراث بعدا جماليا استغله الكاتب لمراجعة التاريخ»[15].

فالتراث يعد المرجع الذي يعود إليه الروائي ليغترف منه من أجل بناء رواية تاريخية بغية الجمع بين الفنية والتاريخية وأما "نبيل راغب" فيرى أنَّ «الرواية التاريخية تعتمد الزمان الموثق والمكان المحدود مع الحادثة المدونة والمعرفة، وتهتم بتسجيل الأحداث الفعلية للتاريخ، وذلك فإن الوقائع والشخصيات والخلفية تستمد كلها من الماضي»[16] من خلال قول "نبيل راغب" يتضح أن الرواية التاريخية ترتكز على ثلاثة أسس تتمثل في الزمان الموثق والمكان المحدود والحادثة المدونة فالزمان والمكان والحادثة عناصر تؤسس لميلاد الرواية التاريخية، التي تستمد أحداثها وشخصياتها من الماضي نتيجة اهتمامها بالأحداث الفعلية للتاريخ.

وهكذا تصبح هذه الروايات تاريخية بحكم عودتها إلى الماضي سواء أكان قريبا أم بعيدا، إذ إن معظم النقاد والباحثين يركزون على ذلك الماضي بصورة كبيرة، ويجعلونه مادة أساسية للرواية التاريخية والتي تستمد منه المادة الحكائية، ولا تعود إليه بغرض التسجيل فقط «فالتاريخ حين يصبح مادة للرواية يصير بحكما للماضي يوثق علاقتنا به ويربط الماضي بالحاضر في رؤية الحقيقة، ولاشك أن التاريخ حين يصبح مادة للرواية يصير ضربا آخر من ضروب الوقفة الإنسانية، له طبيعته المتميزة ومكوناته الخاصة، ومنها لا نسأل في الرواية التاريخية إلى حد كبير عن حقيقة التاريخ، وإنما نفتش عن صدق الفن»[17].

وإذا وظف الروائي التاريخ فإنه يوظفه بطريقة جمالية تأخذ من الخيال الجانب الفني والجمالي، ومن التاريخ الصدق والحقيقة، والرواية التاريخية حين تغوص في أعماق التاريخ الغابر فإنما تعمل على إحيائه وبعث الروح فيه وذلك من خلال الأحداث والشخصيات الموظفة فيها والتي يضفي عليها الروائي صبغة فنية من خلال إطلاق العنان لخياله وتصوره لتغيير ما يجب تغييره إذ لابد لهذه الشخصيات أن تكون قريبة من العصر الذي كتبت فيه الرواية.

فالرواية التاريخية وأثناء تناولها للشخصيات التي لها مكانتها في التاريخ، فإنها تتناول ذلك بأسلوب شيق لا يتقيد بالتاريخ ولا تنقله نقلا حرفيا، بل يغير ويبدل ويحرر من أجل أن يتماشى ذلك مع القصة المتناولة كما في قصص "ولتر سكوت ودوماس"أو قد يتناوله بأسلوب يتقيد بالتاريخ، ولكنه يوظف ذلك في شكل قصص كقصص "ليتون Lyttan" و"ايبرس Ebers" أو باستغلال التاريخ استغلالا فلسفيا يعمد فيه الكاتب إلى التاريخ الأسطوري فيصبه في قالبه صورة من صور المجتمع الحديث كقصص "سارتر Sarter" و"كامو camus"»[18].

ورغم اختلاف الآراء والتوجهات التي قدمت مفاهيم للرواية التاريخية إلا أنها تبقى جنسا أدبيا يستمد من التاريخ المادة الحكائية لصنع اللغة وبناء الأحداث، وبث الحوار بين الشخصيات فالتاريخ و الرواية وجهان لعملة واحدة، وهذا ما أكده "غونكور"الذي يرى أن «التاريخ رواية وقعت، والرواية تاريخ قابل للوقوع»[19] فلا يمكن أي عنصر منهما أن يستغني عن الآخر، فرواية التاريخية تستمد من التاريخ المادة الحكائية، والتاريخ يأخذ من الرواية الجانب الفني والجمالي، فلا أحد «ينكر العلاقة بين التاريخ والإبداع الأدبي لتبقى الرواية التاريخية شاهدا حيا

على وقائع التاريخ »[20] محاولة إعادة بناء أحداثه بطريقة جديدة تكون أقرب إلى الخيال والإبداع.

والرواية التاريخية تعيد تشكيل الأحداث تشكيلا يرتبط بالحاضر وإلباس هذه الأحداث ثوبا جديدا يتماشى وصورتها المتغيرة نتيجة قدرة الفنان على الجمع بين التاريخ والرواية «ذلك أن هناك إجماع أو شبه إجماع على أن التاريخ لم يعد مجموعة أحداث وحالات متفرقة يربطها أو ينظمها نسق خاضع لنواميس أو مبادئ عامة أو روابط وصلات سببية »[21] ومع ذلك فالرواية التاريخية هي التي استطاعت أن تغير أحداث التاريخ وتعيد تشكيلها تشكيلا متعددا أو مختلفا وإعطاءها أبعادا ودلالات أخرى.

فالروائي يحاول أن يجعل من هذا العمل الأدبي أهمية كبيرة فالعمل القصصي لكي يكون مهما يجب « أن يحكي عن حدث ماض، ولكن هذا الماضي لابد أن يشكل على نحو يجعله حاضرا في ذهن قارئ القصة، ذلك أن حضور العمل شرط أساسي لنجاح العمل القصصي»[22] فكاتب الرواية التاريخية يبذل قصارى جهده لأن يجمع بين الفن والتاريخ من خلال العودة إلى أحداث الماضي لتصبح حاضرة في ذهن المتلقي وعليه فكاتب الرواية التاريخية أن يسوي بين الجانب التاريخي والجانب الفني الإبداعي ولا يغلب مرجعية على أخرى، ذلك أن تغليب عنصر على عنصر يحيل هذا اللون الأدبي إلى شيء آخر «فمن العسير بعض الشيء أن يكتب الأديب قصة فنية مدعمة بالوثائق، إن الوثائق غالبا ما تأتي جافة مباشرة ولا تهتم بالحقائق الأولية المجردة، والوثائق (المادة التاريخية) تبرز الحقائق الأولية ولا تكترث بالأبعاد النفسية للشخصيات ،والفنان الذي يريد كتابة قصة مدعمة بالوثائق لا يستطيع أن يضع الوثائق متجاورة ويتقيد بحرفية التسلسل وإلا كانت كتابته مجرد بحث تاريخي، أو دراسة قانونية محكمة، وهذا وضع قد يتعارض مع مستلزمات الفن القصصي، ويخرج به عن دائرة الإبداع المطلوب والإجادة المرجوة»[23] لأن المادة التاريخية تكون جافة بعيدة عن نفسية الشخصيات وعواطفها ،والمبدع الذي يريد كتابة رواية مدعمة بالوثائق التاريخية لا يمكنه أن يتقيد بالتسلسل الزمني الكرونولوجي للتاريخ

وهكذا فإن الرواية التاريخية هي رواية تتأرجح بين ثنائية التاريخ والفن، بين مادة تاريخية حقيقية مثبتة، وأخرى إبداعية جمالية فنية تخضع لخيال الروائي وطريقته في سرد هذه الأحداث وإعادة تشكيلها وإخراجها في حلة جديدة فيها من التاريخ صدق الحقيقة ومن خيال جمالية الصورة.

وهذا ما وجدناه متجسدا في بعض النصوص الروائية التاريخية مثلما هو الحال مع "نجيب محفوظ" الذي يجعل الجانب والتاريخي والفن الجمالي متساويين عندما يتحدث عن بعض الفترات من التاريخ الفرعوني «فالحقائق الكلية مثبتة دون شك، أما المبتكرة فهي التي تبرز بجلاء قدرة الأديب وعبقريته على رسم الخلفية الاجتماعية والعاطفية والنفسية للحدث التاريخي»[24].

أما جورجي زيدان فقد غلب الجانب التاريخ على الجانب الفني إذ زادت المرجعية التاريخية لغايات موفية فقلت الفنية التبعية»[25] فهناك روائيون يبدعون وهم متقيدون بالنص التاريخي، ومنهم من يطلق العنان لخياله، ويسبح بفكره في فضاءات بعيدة، ولكن الروائي الذي لديه رؤية عميقة هو ذلك الذي يوفق بين التاريخ والفن، وهذا ما أكده نجيب محفوظ «إن في الرواية التاريخية نوعين: الأول منها تعيدك فيه الرواية التاريخية إلى التاريخ بكل تفاصيله وطقوسه، و كأنها تردك إلى الحياة فيه، أو تبعث الحركة في أوصاله الهامدة أما النوع الثاني فإنه يستعيد المناخ التاريخي فقط، ثم يترك لنفسه قدرا من الحركة النسبية داخل إطار وأنا من النوع الثاني »[26].

فكتاب الرواية التاريخية ينقسمون إلى قسمين كما يوضح ذلك "نجيب محفوظ" – قسم يتقيد بمعطيات التاريخ، ويرضى بكل تفاصيله ودقائقه، فيجعلك بذلك تعيش في عهود ماضية ،وقسم ثان يخضع المادة التاريخية لرؤيته الإبداعية وقدرته الخاصة ليقدم ذلك في شكل متميز، ومظهر بديع، وهذا ما صرح به "نجيب محفوظ"إذ أعلن أنه ينتمي إلى القسم الثاني، فهناك كثير من المبدعين من أخضع عمله للسرد أو منحه شكل تخيل مثلما فعل روبرت "شولر، وروبرت كيلوغ، أونور شروب فراي".

وإذا كانت الرواية التاريخية تتكئ على التاريخ، فإنها لا تنقله بطريقة تسجيلية وحرفية، بل تنقله كما يتصوره الفنان، ومع ذلك فهي تستمد خصائصها من الخطاب الذي يهتم بالتسلسل الزمني لأن «الرواية اتخذت التاريخ عجينة ومادة شكلت منها خطابا روائيا مغايرا يحتاج إلى قراءات متعددة لاكتشاف خباياه وأسراره »[27].

ومن ثم ظهر اهتمام الباحثين والنقاد بدراسة التاريخ وتوظيفه في النص الروائي كما حاول الأديب أن يربط الماضي بالحاضر من خلال توظيف التراث في الرواية، وعليه فإن الرواية وجدت «في التراث بعدا جماليا استغله الكتاب لمراجعة التاريخ»[28] لأن التراث يعد المنبع الذي يغترف منه المبدع ولكن يمكننا طرح السؤال التالي: هل قدمت هذه الرواية إضافة نوعية لقراءة التاريخ، وفهمه؟

إن التاريخ علم من العلوم الإنسانية، والرواية فن من الفنون الأدبية، والفنان القدير هو الذي يستطيع أن يمزج بينها بطريقة متناسقة ولا يغلب هذا على ذاك، وقد لا تتمكن الرواية التاريخية من تقديم الإضافة التي تمكننا من قراءة التاريخ وفهمه فهما دقيقا، ولا تستطيع حتى أن تقدم فهما لنفسها.

وقد سعت الرواية التاريخية لفرض وجودها بشتى الطرق متخذة من التاريخ المادة الخام دون الغوص في أعماقه،وكشف أسراره، وقد حاولت أن تسقط الماضي على الحاضر فهي «ليست تاريخا خالصا محققا

يرجع إليه، ويوثق به، ويعتمد عليه، ولكنها مع ذلك تستمد مادتها من التاريخ، وتؤثر بدورها في فهمنا له، وطريقتنا في عرض حوادثه وسرد أخباره وتصوير شخصياته»[29].

ولذلك فإن كاتب الرواية التاريخية عليه أن يمتلك القدرة اللازمة للجمع بين حقيقة التاريخ وقوة الخيال في تناسق وانسجام كبيرين فهو قادر على أن «يضعنا في جو ذلك الزمن كما لو كنا نعيشه اليوم»[30] معتمدا على استرجاع الماضي، وجعلنا نعيشه في اللحظة الراهنة، والهدف من ذلك «تعليم التاريخ من خلال أسلوب شائق وجذاب حتى يتغلب على جفاف المادة وجهامة المعلومات التي يقدمها للقراء»[31] وعليه فالرواية التاريخية توظف الأسلوب الجميل الذي يميل إلى الأديب حتى يغطي جفاف المادة التاريخية فالتاريخ إذا أحسن الروائي توظيفه، فإن ذلك يتغلب على جفاف المادة وسطحية المعلومات.

فهذا النوع من الرواية هي استيعاب للتاريخ الماضي، تستخدمه لأجل مبررات فنية، يختص بها المتخيل السردي، فالرواية التاريخية توظف التاريخ لتفسير الواقع بمتناقضاته وقد تستغل هذه الرواية «التاريخ لمجرد تقديم حكاية مسلية، ذلك لأنها كانت تعبيرا عن حماس قومي يهدف إلى بعث أمجاد الماضي وبطولاته، ويستلهم من هذا التاريخ المعاني التي تدفع طريق المستقبل»[32] لأن الرواية التاريخية قد تقدم للملتقى أحداثا وشخصيات تاريخية تهدف من ورائها إلى التسلية والترقية.

- نشأة الرواية التاريخية عند العرب: لقد أثار ميلاد الرواية التاريخية ضجة كبيرة في الوسط الأدبي العربي أهي عربية المنشأ؟ أم مجرد حنين وافد من الغرب؟ وهل الرواية التاريخية ولدت ميلادا عضويا كاملا أم أنها كانت مجرد بدايات وإرهاصات في أدبنا العربي؟.

إنَّ الإجابة عن هذه الأسئلة تباينت واختلفت ولكن الذي يجمع عليه جل النقاد والباحثين أن الرواية العربية عامة والرواية التاريخية غريبة المنشأ، وأن العرب تأثروا بالغرب في هذا المجال، فالرواية التاريخية ولدت في بادئ الأمر غربية ثم انتقلت إلى العالم العربي فـ"ولتر سكوت" (1771-1832) يعد «أب القصة التاريخية الرومانتيكية في أوروبا»[33] من خلال قصته الشهيرة "ويفرلي waverle" 1814 وكان يهدف إلى تصوير المشاعر والعواطف الإنسانية في مجتمع من المجتمعات فقد «ألف العصور الخيالية ووعاها في ذهنه وكانت قصص الزعامة والبطولة وكل ما يتصل بالفرسان والشجعان تغريه وتهزه»[34] فكان يختار أبطال قصته من العصور الوسطى، ويضع شخصياته التاريخية في المرتبة الثانية، لكي يغير ويحور التاريخ، ولكنه لم يول العقدة الغرامية اهتماما كبيرا في قصصه، بل كانت لربط الحوادث وإثارة الانتباه فهو رائد الرواية التاريخية، وهو الذي وضع لها الأسس والقواعد التي سار عليه كل من جاء بعده»[35].

وفي المقابل هناك بعض الباحثين من يرفض هذه الفكرة، ويرى بأنَّ"ليو تولستوي 1827-1910" صاحب رواية "الحرب والسلام" هو رائد الرواية التاريخية بدون منازع، فقد تحدث من خلال رائعته هذه عن غزو نابليون لروسيا، كما تحدث عن تاريخ أسرتين ذكرهما في روايته هذه، وكان "تولستوي" حسب آراء بعض النقاد والباحثين يتمتع بقوة خيال وذكاء وتجارب واسعة، بينما يرى آخرون أن الرواية التاريخية تنسب إلى الأمريكي "ستيفن كرين Stephen crane" في روايته "شارة الشجاعة الحمراء".

وقد اختلف كتاب الرواية التاريخية، فبعضهم تناول قصصا رومانسية وأخذ التاريخ لمجرد تفسير سلوك بعض الشخصيات في ظروف محددة، أو قد يعبر هذا التاريخ الموظف في الرواية عن التغير والتبدل من حالة اجتماعية إلى أخرى، وفي هذا الصدد يتحدث "أرنولد كيتل" ويرى بأنه: «من غير عدل أن ندعو الكاتب الإنجليزي ولتر سكوت روائيا تاريخيا، فهو لم يكن يهتم بالتاريخ لذاته، أو حتى لصورة رئيسية كما يولد أحيانا، ولكن لديه حس بليغ بالتاريخ، وبالقوى التي تضع وضعا وتقود أفرادا إلى التصرف بطرقة معينة ... »[36].

أما في فرنسا فقد ظهر "ألكسندر دوماس A. Dumas" الذي عد رائد هذا الجنس الأدبي، فهو الذي حاول أن يصور تلك الأحداث التي جرت في فرنسا في الفترة الممتدة بين (1844-1852) وقد اعتمد كثيرا على الحقائق التاريخية، إذ يرى أن التاريخ ما هو «إلا مسمار أشجب عليه لوحاتي»[37] فالمادة التاريخية في نظره سهلة التناول يشكلها الروائي كما يريد فهي عبارة عن مشجب يعلق عليه كل أماله وطموحاته وآلامه وأحزانه.

فالتاريخ هو المرجع وهو الذاكرة التي تحفظ للإنسان مخزونه الفكري، وتسجل أفعاله وأقواله، أما " ألفريد دي فيني" الفرنسي فقد كتب هو الآخر مجموعة من الروايات التاريخية الرومانسية " cinq mars 1826" وقد أخذ على "ولتر سكوت"أنه«يترك شخصياته حائرة لا تتحرك على الأفق البعيد بينما يعرض علينا شخصيات غير تاريخية»[38] فهو يمثل العواطف والمشاعر الداخلية للشخصية أكثر من ميله للتاريخ وتدوين الحقائق «والأن تعيش الرواية التاريخية عصرا ذهبيا عند الغرب كما يظهر ذلك على أيدي كتاب معاصرين من أمثال"خوسيساراماجور" و"ماركيز" و"ماريو فاراجاس لوسا" و"مارجريت أتوود"»[39].

فالرواية التاريخية عند العرب نشأت متأثرة بنظيرتها عند الغرب «فكما هو واضح أن الرواية العربية في ميلادها، ولدت معوقة تقتات بالمؤجل وتلتمس الحرية في فضاء مقيد، فلا هي في المجتمع الذي تحتاجه ولا هي بالشكل الذي ينبغي أن تكون عليه»[40] ولكنها تطورت بعد ذلك ووجدت لنفسها فضاء أرحب، «فالتطور سمة تميز كل شيء، بما

في ذلك الرواية العربية عامة والرواية التاريخية خاصة، فقد تأثرت في اتجاهها العام بالكلاسيكية أولا ثم تأثرت بالرومانتيكية»[41].

وقد نشأت الرواية العربية عند انطلاقتها في بداية التاريخ وتجلى ذلك عند بعض كتاب مثل: "سليم السيتاني" في روايته زونوبيا 1871 وجورجي زيدان (1861- 1914م) الذي كان متأثرا بولترسكوت الانجليزي، والذي غذى هذا اللون بمجموعة من الحكايات التاريخية الإسلامية حتى أنَّ بعضهم يصفه برائد هذا الفن النثري في أدبنا العربي»[42] وتبعه في ذلك مجموعة من الأدباء مثل "علي الجارم (1881- 1949)" في روايته "هاتف من الأندلس" و"محمد فريد أبو حديد" في قصته "المهلهل، الملك الضليل" ومحمد عوض في قصته "ستوحي"، والتي تناول فيها شخصية بن زيدون الأندلسي وولادة بنت المستكفي وروايته "شاعر ملك" عن المعتمد بن عباد وروايات "الشاعر الطموح"، "خاتمة المطاف" عن المتنبي وغيرها من رواياته المتعددة والتي اتخذت التاريخ مادة لأعمالها، كما نذكر في هذا المقام الروائي محمد سعيد العريان (1905- 1964) والذي قصر رواياته على تاريخ مصر الإسلامي، وخاصة عند الأيوبيين والمماليك في روايته " قطر الندى" و" شجرة الدر" فبعض الباحثين يرون أن سليم البستاني يعد من الأوائل الذين مهدوا لظهور الرواية التاريخية في الأدب العربي، حيث إن «بذرة الرواية التاريخية كانت موجودة في رواية سليم البستاني، ولكن قد يكون البعض قد عدّ جورجي زيدان أب الرواية التاريخية العربية من حيث الكم الذي كتبه، بحيث سبق سليم البستاني جورجي بروايتين تاريخيتين بأكثر من عشرين سنة 1871 قصة زنوبيا، 1874. قصة الهيام في فتوح الشام »[43] إذن "فسليم البستاني" ورغم أسبقيته للكتابة في هذا الفن إذ كان هو الأول الذي وضع أسس الرواية التاريخية إلا أنه هناك من النقاد والباحثين من يقدم جورجي زيدان عليه، وذلك لقلة إصداراته، بينما أصدر جورجي زيدان مجموعة من الأعمال الإبداعية والتي من خلالها استطاع أن يتربع على عرش الرواية التاريخية.

ولهذا السبب عد من الأسماء اللامعة والتي برزت في عالم الرواية وقد «كانت روايات جورجي زيدان (1861-1814) التاريخية محاولة لإدخال جنس الرواية في السلسلة الثقافية العربية ... عبر باب التاريخ الغربي»[44] كما يؤكد ذلك الباحث كامل خطيب، فهو الذي أسس قواعد هذا الفن الروائي بالرغم في أدبنا من أسبقيته سليم البستاني إلا أن «ما يؤاخذ عليه زيدان هو كون نصوصه الروائية لم تكن تستهدف تعليم التاريخ سليما من أغراض الكاتب وأهوائه، بل يستغل أحداثا متميزة توفر للنص الإهتزاز والحيوية اللازمين »[45] كما أنه ونتيجة اهتمامه المفرط بالتاريخ لغاية تعليمية ،أغفل الجانب الفني الجمالي، ولكن ذلك لا ينقص من فضله الكبيرالذي جعله يساهم في تثبيت قدم الرواية التاريخية في أدبنا العربي "علي باب زويلة" وعلي أحمد باكثير (1910- 1965) الذي اتجه إلى التاريخ الإسلامي في أوطانه المتعددة فألف وإسلاماه و"الثائر الأحمر" و"سيرة شجاع" والذي استطاع أن يصور المواقف التي تحتوي على صراعات بمهارة فائقة ودقة كبيرة يقول عن ذاته «لعل اهتمامي بقضايا الأمة العربية ذو أثر في ولعي بالتاريخ و استلهامه والفن عموما ينبغي عندي أن يقوم على الزمن والإيحاء على التعيين والتجديد فتكون الحقيقة التي يصورها الواقع وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر»[46] فاهتمامه بقضايا الأمة العربية هو الذي وّلد في نفسه رغبة جامحة لكي يوظف التاريخ في أعماله الإبداعية لأنه ذاكرة الأمة العربية وماضيها الذي يتحدث عن أمجادها وبطولاتها، فالفن في نظره يقوم على الزمن والإيحاء، لذلك فهو قادر على تصوير الحقيقة أكثر مما يصورها الواقع نفسه، وبعد ذلك ظهرت روايات نجيب محفوظ التاريخية التي جسدت لمحات من التاريخ الفرعوني في ثلاثة من أعماله: هي "عبث الأقدار1939م " و"اردوبيس1943" و"كفاح طيبة 1994م" وقد شكلت هذه الروايات نهضة وتقدما ملحوظا في كتابة الرواية التاريخية»[47].

ومع الجيل الثاني، جيل الروائي "نجيب محفوظ" أصبحت الرواية التاريخية أكثر فنية مما كانت عليه مع الجيل الأول، كما أصبحت أكثر تبعية للتاريخ، في حين كانت قبل ذلك تقتصر على إعادة كتابة الأحداث وتسلسلها، ومن رواد هذا الجيل نذكر على سبيل المثال لا الحصر: إبراهيم رمزي، عبد الحميد السحار، محمد عبد الحليم، عبد الله عادل كامل وغيرهم.

ومع الجيل الثالث تحولت الرواية التاريخية تحولا كبيرا إذ صارت تركز على الجانب الفني الجمالي بصورة جلية، ولم يعد التاريخ يوظف إلا لغايات إبداعية صرفة، تسهم في نقد الذات وتوجهها نحو المستقبل حتى تستفيد من أخطاء الماضي، فقد حان الوقت لكي يقر المبدعون بأدبية هذه الرواية، إذ يلجأ المؤلف إلى الماضي لرؤية آنية إسقاطيه استثمارية للتاريخ، ومن أشهر الرواد نذكر جمال الغيطاني في روايته "الزيني بركات"، وهي رواية تتكئ على نص تاريخي، إذ يعول الكاتب فيها على كتاب المؤرخ المملوكي محمد بن أحمد بن ايّاس: "بدائع الزهور في وقائع الدهور" «وتجربة الغيطاني في مدونته لا تخرج عن ترسم التراث الغربي، والاستهداء بالنصوص الصوفية والتاريخية على وجه التحديد»[48]، فالغيطاني وظف التاريخ بهذه الكيفية حتى يستفيد الجيل الحاضر من ماضي أجداده، كما ألفت الروائية "رضوى عاشور" مؤلّفها "ثلاثية غرناطة" والتي تحدثت فيها عن هزيمة العرب في الأندلس، دون أن ننسى عبد الرحمان منيف في روايته "أرض السود" والتي يصور من خلالها تاريخ العراق في الثلث الأول من القرن التاسع عشر»[49].

فـ"جمال الغيطاني" يستحضر الواقع والشخصيات التاريخية في روايته هذه التي تتوسل إلى التاريخ من أجل استكناه الحاضر فيه «فالوقائع في هذه الرواية عكست الحاضر المعيش»[50] لأنَّ الرواية تحاول أن تصور الماضي لكي تعبر من خلاله عن الحاضر.«فالروائي يعود

إلى الأحداث الماضية لأنه يريد إسقاط حقائق عصره على تلك الأحداث الماضية»[51].

ظهور الرواية التاريخية: لقد كثرت الأسباب وتعددت الدوافع التي أدت إلى ميلاد الرواية التاريخية في الوطن العربي، فبعض النقاد والباحثين يربط ذلك مباشرة بوجود الاستعمار، ومنهؤلاء الناقد "سمير دوحي"الذي يرى أنَّ «ظهور الرواية التاريخية مرتبط برد الفعل العربي على سياسة التتريك وحين بدأت المرحلة تتجه نحو الاستقلال شرعت الرواية التاريخية تتجمد وتتراخى»[52]ومن ثمّ يتضح أن الاستعمار كان له الدور الأساسي في ظهور هذا النوع من الكتابة، والتي يحاول الروائي من خلالها نشر الوعي التاريخي والقومي بين الأفراد.

ولعل عودة الروائيين إلى الماضي لدليل صريح على أنه رد على الاستعمار الغاشم، والذي حاول طمس القومية العربية، فالتاريخ العربي الإسلامي يقدم للمتلقي صورة عن الأمجاد والبطولات وهي حقائق ممزوجة بشيء من الخيال، والرواية التاريخية تقوم على الواقعية التاريخية وعلى المتخيل الروائي «وما من شك في أن كل رواية تاريخية فيها تاريخ وفيها خيال يبدعه الروائي، ويجب أن يجتمع التاريخ والخيال معا في الرواية التاريخية، فلو كانت كلها أحداثا ووقائع تاريخية، لكانت تاريخا لكانت تاريخا وليست رواية تاريخية، ولو كانت الأحداث في الرواية كلها خيالية لما صح تسميتها – رواية تاريخية –»[53] فالرواية التاريخية تشكلت معالمها بين ثنائية التاريخ والخيال فهي تسعى إلى نقد الواقع وإعادة تشكيله.

وهكذا استطاعت الرواية التاريخية من خلال مرورها بهذه المراحل الثلاث أن تنافس نظيرتها في الغرب، وتجعل لنفسها كيانا مستقلا وفضاء أوسع وأرحب مكنها من تبوء مكانة مرموقة بين الأجناس الأدبية الأخرى. وقد تستحضر الرواية التاريخ العربي الاسلامي وهذا الصنف ينطلق من إيديولوجيا عربية إسلامية، كما نستحضر التاريخ الفرعوني وهذا النوع تابع من منطلق إيديولوجيا فرعونية.

شريط جميلة

الهوامش والإحالات:

01)- جورج لوكاش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، الوراق، ط1، 1986. ص 07.

02)- المرجع نفسه، ص 89.

03)- المصدر نفسه، ص ن.

04)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث، ط1 الأردن، 2006، ص 112.

05)- المرجع نفسه، ص ن.

06)- المرجع نفسه، ص 113.

07)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 114.

08)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ ، ص 112.

09)- المرجع نفسه، ص ن.

10)- محمد نجيب لفتة، ولتر سكوت والرواية التاريخية، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد 04، آذار، 1997، ص 185.

11)- محمد نجيب لفتة، ولتر سكوت والرواية التاريخية، ص 185.

12)- ينظر: جمال محمود حجر، بين الرواية التاريخية ورواية التاريخ، مقال إلكتروني نقلا عن الموقع www.ahrara.org.eg، ص .01

13)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 112.

14)- سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، الدار الكبيرة للعلوم ناشرون، ط1، الرباط 2012م. ص159.

15)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 112.

16)- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، ص 89.

17)- طه وادي، الرواية السياسية، الشركة المغربية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 2003، ص 157.

18)- أحمد أبو سعد، فن القصة، منشورات دار الشرق الجديد، د.ط، 1959، ص 30.

19)- جورج لوكاتش، الرواية التارخية، ص 89.

20)- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2004، ط1، ص 365.

21)- عبد الرحمان ياغي، البحث عن إيقاع جديد في الرواية العربية، دار الفرابي، لبنان، (د.ت)، ط1، ص 93.

22)- نبيلة إبراهيم، نقد الرواية، مكتبة غريب، مصر، د.ط، 1992، ص 32.

23)- نجيب الكيلاني، دم لفطير صهيون (رواية)، دار النفائس، لبنان، ط1، 1971، ص 138.

24)- المصدر نفسه، ص ن.

25)- نضال الشمالي، الرواية التاريخية، ص 124.

26)- المرجع نفسه، ص 126.

27)- صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمان منيف، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص 90.

28)- عامر مخلوف، توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية، بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الأديب، (د.ط) 2005، ص 16.

29)- عامر مخلوف، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، ص 16.

30)- قاسم عبده قاسم و إبراهيم أحمد الهواري، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، نصوص تاريخية ونماذج تطبيقية من الرواية المصرية دار المعارف مصر، (د.ط)، 1979. ص 181.

31)- حلمي محمد قاعـود، الرواية التاريخية فـي أدبنا الحديث (دراسـة تطبيقية) دار الإيمان للنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 2008، ص 15.
32)- عبد الله خليفة، من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، منشورات الأحكام الجزائر، ط1، 2007، ص: 18.
33)- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، لبنان، ط3، د.ت، ص 246.
34)- مصطفى الصاوي الحويني، في الأدب العالمي، منشأة المعارف، مصر 2002، (د.ط)، ص 16.
35)- ينظر: محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار العودة لبنان، (د.ط)، 1973، ص 213.
36)- حميد الحميداني، بنية النص السردي من المنظور النقدي الأدبي، المركز الثقافي الغربي، ط3، 2000، ص 61.
37)- محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، 2006، ص 79.
38)- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص 213.
39)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 119- 120.
40)- فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، ص 365.
41)- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، لبنان، (د.ط)، 1973، ص 538.
42)- المرجع نفسه، ص 532.
43)- عبد السلام أقلمون، الرواية والتاريخ، ص 16.
44)- أمال سجادة حسن، الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص 33.
45)- المرجع السابق، ص 135.
46)- محمد أبو بكر حميد، هل انتهت مرحلة الرواية التاريخية العربية؟ http //www.lahanline.com littérature/critique /455 doc.cw.07Fevrier 2009.
47)- نضال الشمالي، الرواية والتاريخ ص .121
48)- بحوث جامعية، مجلة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، العدد 03، 4 جانفي 2003م، (من خصائص الكتابة الروائية في الزين بركات لجمال الغيطاني)، أحمد الجوة، ص 114- 115.
49)- ينظر: نضال الشمالي، الرواية والتاريخ، ص 122.
50)- المرجع نفسه، ص 123.
51)- أحمد حمد النعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس للطباعة والنشر، الأردن، ط1، 2004م ص 62.
52)- أمال سجادة حسن، الرواية التاريخية بين الأدبين العربي والروسي في النصف الأول من القرن العشرين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة دمشق، سوريا، 2010/2009، ص 9- 10.